سلطة رجال الدين، وتحرير المعرفة من غيبيّاتهم، ومن خرافات الكتب القديمة الجاثمة فوق رؤوسهم؟ وما دور اليساريين العرب في هذا الميدان؟

اليسار إمّا ان يكون مستقلاً تمامًا عن الأنظمة العربيّة أو لا يكون يسارًا حقيقيّاً؛ واليسار الذي يختار أن يصبح ذيلاً للتيّارات الإسلاميّة ليس يسارًا.

إنه دور سديميّ، بلا قوام متماسك. كأنّ هؤلاء خضعوا لقانون التلاشي على غرار علم الفيزياء ومصطلح التآكل، والبيولوجيا ومصطلح الشيخوخة، والكيمياء ومصطلح التحلّل، وعلم الاجتماع ومصطلح الفساد، والتاريخ ومصطلح الانحطاط، والسياسة ومصطلح الاندثار. هل هذا ما يحدث لليسار واليساريين حقّاً؟

الزهاوي والبخاري

يقال: لولا جيمس واط، مخترعُ محرّكات البخار التي كان لها الشأنُ الكبيرُ في إطلاق الثورة الصناعيّة، لما ظهر كارل ماركس. في هذا الميدان عثرتُ على رواية تقول إنّ وزارة الحربيّة العثمانيّة كانت تخصّص مبلغًا من المال سنويّاً ليُنفق على شيوخ يقرؤون على بحّارة الأسطول العثمانيّ أجزاءً من القرآن، وأحاديثَ من صحيح البخاري. وكان الشاعر المعروف جميل صدقي الزهاوي نائبًا عن بغداد في مجلس النوّاب العثمانيّ. وفي أثناء مناقشة بنود الميزانيّة في إحدى السنين هبّ معترضًا على هذا البند، وقال إنّ الأساطيل في هذا العصر تسير بالبخار لا بالبخاري. فضجّت القاعة بالضحك، وتعالت أصواتٌ أخرى غاضبة وصائحة: «زنديق، كافر، ملحد...»

لعلّ اليسار المتشظّي اليوم في هذا السديم العربيّ يحتاج، أكثر ما يحتاج، إلى «كفرة وملحدين وزنادقة» وعقلانيين من عيار جميل صدقي الزهاوي الذي تصدّى لخرافات الشيوخ في الجيش العثمانيّ. غير أنّ العلّة التي تعوّق تأسيس هذا اليسار كتيار سياسيّ وفكريّ واضح المعالم تكمن، علاوةً على العوامل الذاتيّة، في الدولة الريعيّة نفسها، وفي المجتمع الرثّ أيضًا. لقد صار المجتمع أكثر رجعيّة، أحيانًا، من السلطة. ولعلّنا ما عدنا نطمح إلى ثورة، بل إنّ منتهى طموحنا هو الإصلاح الذي ربّما يفضي إلى إعادة تأسيس الدولة والمجتمع على أسس مدنيّة عصريّة. وهذا الأمر هو الثورة بعينها، وهذا هو ميدانُ اليسار الثوريّ الذي ما انفكّ غائبًا منذ زمن طويل، مع أنّ تجربة الانتفاضة التونسيّة والثورة المصريّة تقدّم له أفضل حقل لاختبار فاعليّته وأفكاره النقديّة الجديدة والمتجدّدة.

بيروت

نعم، أنا مهرّج. ومهمّتي إضحاك الملك. رغم الستّين التي أشرفتُ عليها مازلت مطلوبًا. في السنوات الأخيرة، لم يعد هناك الكثيرون ممّن يجرؤون على المبالغة في التعامل معي كما في السابق، كالهروب بملابسي أو رشقي بقشور الفواكه... مع كلّ هذا أقول دومًا إنّ مهنة كهذه تغري الرجال المهمّين كالوزراء والجنرالات. لقد رأيت بعضهم يفعل كالقرد وهو يفلّي شعر بطنه في اجتماع حكومي تناقش فيه أشياء مهمّة كميزانية الدولة. كلّ هذه التصرفات تبدو لي غريبة عندما تصدر عن أناس مهمّين كالوزراء والكتّاب العامّين. لم يكن أضحاك الملك جزءًا من عملهم في يوم من الأيام، وهذا يضاعف احتقاري لهم. إنّما عليّ دومًا أن أخفي مشاعري الحقيقية وأن أتقبّل سخرية الآخرين وتعسُّفهم عن طيب خاطر. هذا جزء من عملي، أنا مهرّج، نعم، ولكنْ خلف قناع التهريج الساخر تقبع نقمة عميقة. حقدي على البشر لا حدود له.

يوسف فاضل روائي ومسرحيّ وسيناريست مغربيّ. صدرت له عدة روايات ومسرحيات منها: **أغمات، سلستينا، ملك اليهود، مترو محال، حشيش** التي حازت جائزة الأطلس الكبير سنة ٢٠٠١، **وقصة حديقة الحيوان.**